محمد قطب

منهج التربية الإسلامية

الجزء الأول

(في النظرية)

دار الشروق

أدّبني ربّي فأحسن تأديبي

حدیث شریف

منهج التربية الإسلامية

الطبعة الحادية عشرة
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية عشرة
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعة الثالثة عشرة
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الطبعة الرابعة عشرة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدّمَة الطَبعَة الثَالثَة

في هذه الفترة الحرجة التي تمر بها البشرية : الفترة التي يصل فيها الفزع إلى غايته ، والقلق إلى أقصاه .. يتبدى واضحاً إلى أي مدى تخبطت البشرية حين شردت عن الله وعن منهجه للحياة .

لقد تخبطت البشرية ما بين عبادة العقل وعبادة المادة ، وعبادة الحتمية التاريخية والحتمية الاقتصادية والحتمية الاجتماعية .. إلى آخر هذه الآلهة المزعومة التي يعبدها الناس في هذا الجيل ليهربوا بها من عبادة الله ! .. فكانت الشقوة التي تفسد الأعصاب والنفوس ، وكان العذاب الذي يمس الأفراد والجماعات ، وكان الفزع الدائم من الدمار الرهيب !

وليس للبشرية علاج من هذه الشقوة المفسدة والعذاب المفزع إلا أن تعود إلى الله ، لتجد الأمن والرعاية في حماه ، وتجد التوجيه الراشد في منهجه للحياة .

ومنهج التربية الإسلامية – الذي يشرح هذا الكتاب بعض جوانبه – هو المنهج الرباني لتقويم البشرية وتوجيهها ، لترشد وتتوازن ، وتسلك سلوكها المستقيم في الحياة .

واليوم إذ أقدم الطبعة الثالثة من الجزء الأول من الكتاب ، أنوه بأن الجزء الثاني ـ الذي تحدثت عنه في مقدمة الطبعة الأولى منذ سنوات عديدة ـ قد صدر بالفعل ، فأصبح الكتاب اليوم في جزءين : هذا الجزء يتناول النظرية ، والجزء الثاني يتناول التطبيق .

والله الموفق إلى سواء السبيل .

محمد قطب

مُقدّمَة الكِتَاب

كيف غفلنا عن أن هناك منهجاً إسلامياً للتربية ، وأن هذا المنهج موجود في القرآن ؟ !

إنني أتحدث عن نفسي ..

لقد ظللت زمناً أقرأ القرآن دون أن أفطن إلى هذه الحقيقة !

لقد أحسست بطبيعة الحال أن في القرآن توجيهات تربوية كثيرة ، وأن لهذه التوجيهات أثراً في النفس ، وأن الإنسان حين يتدبرها ويتأثر بها ، يصبح له سلوك معين وتفكير معين وشعور معين ، هو أقرب إلى الصلاح والتقوى ، ويصبح الإنسان أكثر شفافية وأكثر إنسانية .

أحسست هذا لأنه بديهية واضحة لا تحتاج إلى تفكير .

ولكن هناك فرقاً كبيراً بين هذا الإحساس المبهم الذي لا يعرف الإنسان من أين ينبع على وجه التحديد ، وبين الإدراك الواعي بأنها ليست توجيهات تربوية متناثرة تجيء عَرَضاً في سياق الآيات ، وإنما هو منهج شامل متكامل ، كل جزئية فيه مقصودة ، وكل كلمة فيه بحساب !

وقد لا يكون من الضروري لكل إنسان أن يدرك بوعيه وجود هذا المنهج الشامل المتكامل المفصل ، فإن الإحساس المبهم الذي يثيره القرآن في قارئه أو سامعه ، يؤدي مهمته في توجيه النفس إلى الخير وتعويدها على الصلاح . ولا شك أن أعداداً لا حصر لها من المسلمين في العصور الأولى أو الأخيرة قد أخذت انطباعاتها من هذا الطريق المباشر ، الذي يصل مباشرة إلى أعماق النفس ، ويحركها ويوجهها إلى حيث ينبغي أن تكون .

ومع ذلك فلهذا الوعي قيمته .

له قيمته في أنه يسند الإحساس الوجداني المبهم ويزيد من تأصله في النفوس .

وله قيمته لدى الدارسين والباحثين ، الذين يصعب عليهم إمساك الوجدانات الطائرة ، فيريدونها مناهج ثابتة تخضع للبحث والتحليل .

وله قيمته أخيراً في مواجهة الفتنة بالمناهج الشائعة في الغرب والشرق ، والتي تفتن الناس بأنها «مناهج» مفصلة مدروسة ، فيغفلون عما فيها من انحراف خطر ، ويظنونها صالحة لمجرد كونها مدروسة مفصلة !

* * *

ولقد ظللت زمناً أقرأ القرآن دون أن أفطن إلى هذا المنهج .

وحتى حين ألفت كتاب «الإنسان بين المادية والإسلام» وأبرزت فيه بوضوح أن للإسلام نظرة خاصة إلى «الإنسان» ، وطريقة خاصة في معاملة النفس الإنسانية ، تختلف في أساسها عن الطريقة المادية التي يمارسها الغرب المادي : شرقه وغربه سواء .. حتى حينئذ لم أكن فطنت إلى منهج التربية الإسلامية ، لأني كنت مشغولاً بالدراسة النفسية في ذلك الكتاب ، وبالنظرة العامة إلى الإنسان .

وقد أوردت في ذلك الكتاب صفحة واحدة عن التربية الإسلامية ، لا تحمل أكثر من خطوط عريضة جداً لهذه التربية ، ثم كتبت عنها فصلاً واحداً في كتاب لم ينشر عن سياسة التعليم . وكنت في هذا وذاك أعالجها في حذر ومن بعيد .

ذلك أنها لم تكن في حسي قد اتضحت بعد !

ومرت سنوات وأنا لا أزداد قرباً من موضوع التربية ولا أتجه إلى الكتابة فيه .

حتى كانت ليلة عجيبة ما زلت أذكرها كأنها الأمس ، وقد مر عليها أكثر من أربع سنوات !

كنت في ضائقة نفسية شديدة لا يبدو في ظلمتها بصيص من النور .

وكان القرآن كتابنا الأوحد الذي نقرأ فيه .

وكنت إلى تلك الليلة قد قرأته – كله – ثلاث مرات أو أربعاً ، وعشت فيه كل لحظة من النهار والليل ، وعشت منه كل آية وكل حادثة وكل خبر وكل توجيه .

وفجأة – في تلك الليلة – أحسست بصفاء ذهني وروحي غير معتاد . وفجأة كذلك أحسست بمجموعة من الخواطر تنثال على نفسي متتابعة كأنها درس محفوظ !

---

(١) كتبت هذه المقدمة سنة ١٩٦٠ .

يا عجباً ! هذا منهج متكامل للتربية الإسلامية لم يخطر في نفسي أبداً من قبل !

منهج متكامل لا يترك صغيرة ولا كبيرة .. يشمل النفس الإنسانية كلها بحذافيرها ، ويشمل الحياة البشرية بالتفصيل !

كيف كان هذا المنهج غائباً عني .. لا أدري !

إنه في وضوحه وبساطته يشبه البديهيات !

ومع ذلك فقد كان غريباً عن نفسي قبل ذلك بلحظات !

ومنذ تلك اللحظة أصبح منهج التربية الإسلامية واضحاً في نفسي ، واعياً في حسي ، أجد له الشواهد في كل توجيه قرآني ، وفي كل حديث أو عمل للرسول صلى الله عليه وسلم .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الترجمة الواقعية للقرآن . وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان خلقه القرآن .

ومن ثم كان هو النموذج الحيّ للتربية الإسلامية ، والمفسر لهذا المنهج ، سواء بأخلاقه الذاتية أو بتوجيهاته للناس .

وأخذت أدرس المسألة على هذا النحو ، وصح في عزمي أن أسجلها في كتاب .

* * *

ومنهج التربية الإسلامية فريد في كل مناهج الأرض ، وإن التقى ببعضها في التفصيلات والفروع . فريد في شموله ويقظته لكل دقيقة من دقائق النفس البشرية وكل خالجة وكل فكرة وكل شعور . وفريد في أثره في داخل النفس وفي واقع الحياة . فقد كان من أثره تلك الأمة العجيبة في التاريخ . الأمة التي انتفضت من تراب الأرض فوصلت إلى السماء . والتي قامت من شتات متناثر لا يكاد يلتقي على غير الصراع والحرب ، فإذا هي أمة صلبة متماسكة لا مثيل لها في الأرض ، تفتح وتغزو ، وتعمر وتبني ، وتقيم مُثلاً أخلاقية وإنسانية غير معهودة من قبل ولا من بعد ، وتنتشر في سنوات قليلة في رقاع الأرض ، تنشر النور والهدى ، وتنشئ الحياة بإذن ربها من جديد .

هذه الأمة كلها من نتاج هذا المنهج . كلها ، بمادياتها ومعنوياتها ،

بمشاعرها وأفكارها ، وسلوكها وأعمالها .. أمة فريدة في التاريخ .

ولئن كان الزمن قد مزق هذه الأمة وشتت كيانها ، على مراحل بطيئة استغرقت أكثر من ألف عام ، فقد كان سبب التمزيق على أي حال هو البعد عن منهج التربية الإسلامية ، وعن الحياة الاجتماعية الإسلامية مع المحافظة على بعض المظاهر الخاوية أحياناً ، والبعد عنها جهرة في بعض الأحيان .

فإذا كان هذا الكتاب يستطيع أن يكشف للمسلمين عن نواحٍ من منهجهم ، ويبعثهم على فهمها والإيمان بها ، فقد أدى مهمته كاملة ، ومن الله التوفيق .

وقد خصصت هذا الجزء من الكتاب لشرح النظرية ، مأخوذة من وجهة النظر النفسية ، على أن يخصص جزء آخر للتطبيق ، في مراحل الطفولة ، والمراهقة ، والشباب المبكر ، والنضج ، واستعراض ما كتبه المسلمون في التربية في العصور المختلفة ، والموازنة بين النظرية الإسلامية والنظريات الغربية في التربية .

اللهم وفقني إلى ما فيه الخير ، انك سميع مجيب الدعاء .

محمد قطب

تمهيد

الوسائل والأهداف

هل العبرة في مناهج التربية بالوسائل أم الأهداف ؟

إن بعض الوسائل على الأقل يتغير من عصر إلى عصر ، ومن جيل إلى جيل .

ثم إن الوسيلة الواحدة يمكن أن تخدم أهدافاً عدة . أو لا تخدم هدفاً على الإطلاق !

الرياضة البدنية مثلاً وسيلة من وسائل التربية . ولكنها – في ذاتها – لا تحدد منهجاً ولا ترسم طريقة .

فهي يمكن أن تربي الطاعة والحرص على النظام كما كانت في ألمانيا النازية ، حيث كان الشباب يدرب على الرياضة البدنية تدريباً عنيفاً ، لا لخلق أجسام قوية فحسب ، ولكن لتعويد الشباب على طاعة الأوامر ، والفناء في شخصية الدولة ، والفناء في شخصية هتلر القائد المتحكم صاحب السلطان .

ويمكن أن تربي التعاون والروح الجماعية كما يقصد بها في انجلترا ودول الشمال .

ويمكن أن تنقلب إلى أنانية فردية كما هو الحال في بعض الرياضيين عندنا حيث يوجهون همهم إلى البروز الشخصي ، حتى في كرة القدم ، التي أنشئت في الأصل لبث الروح الجماعية المتعاونة !

ويمكن أن تنقلب إلى عبادة الجسد والافتتان بالقوة الجسمية البحتة ، أو « بجمال » الأجسام ، كما كان الحال عند الرومان .

ويمكن أن تنقلب إلى مجرد تربية « عجول آدمية » منتفخة الرقبة ممتلئة العضلات ، لا تحس من الروح الرياضية شيئاً ، ولا ترتفع عن محيط الحيوان !

والتربية بالقصص وسيلة من وسائل التربية ، يمكن أن تخدم أهدافاً عدة ، ويمكن ألا تخدم هدفاً على الإطلاق !

يمكن أن تربي في الناس الروح الفنية والحساسية المرهفة للجمال .

ويمكن أن تربي فيهم التفكر في الأنفس وفي الآفاق ، وتوجههم إلى تدبر العبرة من الحوادث ، والتطلع إلى الهدى ، والبعد عن الضلال .

ويمكن أن تكون مجرد « تسلية » .

ويمكن أن تشيع في الناس التفاهة والانحلال ..

وهكذا كثير من الوسائل ، لا يحكم بذاته على منهج ، ولا يبين الطريق .

ولكن هذا ليس معناه أن نهمل الوسائل ونسقطها من الحساب .

كلا . فالوسائل هي أداتنا الوحيدة لتحقيق ما نؤمن به من الأهداف ، وينبغي العناية الكاملة بها ، والتدقيق في بحثها واختيارها ، إذ الوسيلة الفاسدة تضيّع الهدف الصالح وتحيد عن الطريق .

ومن ثم فالوسائل والأهداف ترتبطان ارتباطاً كاملاً في مناهج التربية .. لا تفترقان . لا يمكن تقويم الهدف من غير الوسيلة التي تؤدي إلى تحقيقه ، ولا يمكن تقويم الوسائل بمعزل عن الأهداف .

* * *

ومنهج التربية الإسلامية منهج متميز متفرد في وسائله وفي أهدافه بشكل ظاهر يلفت النظر ، ويدعو إلى التفكر في مصدر هذه العقيدة التي تفردت على مدار التاريخ .

ولا شك أن التقاء عرضياً يحدث بين الإسلام وغيره من مناهج التربية ومناهج الحياة ، سواء في الوسائل أو الأهداف . ولكن هناك حقيقة تظل قائمة بعد ذلك . هي أن البشرية لم تعرف في تاريخها كله نظاماً بهذه السعة وهذا الشمول وهذه الإحاطة ، بحيث لا يند عنه شيء في حياة الإنسان ولا لحظة من حياته ، لا تقع في محيط منهاجه الشامل الدقيق . وتظل له مزية أخرى فوق ذلك : هي أن هذه السعة وهذه الإحاطة لا تخرجان به عن وحدة الهدف ووحدة الطريق . فهو ليس طرائق قدداً كل منها يؤدي إلى غاية منفصلة ويجذب النفس في اتجاه ، فتتمزق بين الشد والجذب ، وإنما هو طريق واحد وغاية واحدة ، تجمع كل شتات النفس وتوحدها ، فتستقيم على النهج ، وتتجمع على الغاية . فتلتقي النفس من داخلها في سلام بعضها مع بعض ، وفي سلام من خارجها مع الكون والناس والحياة .

ومنذ اللحظة الأولى يحس الإنسان بذلك التفرد .

فبينما تلتقي مناهج التربية الأرضية كلها تقريباً على هدف متشابه ، وإن اختلفت في وسائل تحقيقه متأثرة بالبيئة والظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية ... إلخ ، نجد الإسلام منذ البدء مفترقاً عنها في هذا الهدف ، مغايراً لها في الاتجاه .

تلتقي مناهج التربية الأرضية على أن هدف التربية هو إعداد «المواطن الصالح» .

وتختلف الأمم بعد ذلك في تصور هذا المواطن وتحديد صفاته . فقد يكون هو الجندي الشاكي السلاح ، المتأهب في كل لحظة للوثوب سواء للعدوان أو لرد العدوان . وقد يكون هو الرجل الطيب المسالم الذي لا يحب الاعتداء على أحد ولا اعتداء أحد عليه . وقد يكون هو الناسك المتعبد الذي يهجر الحياة الدنيا وينصرف عن صراع الأرض الكريه . وقد يكون هو العاشق لوطنه المجنون بعنصريته .. وقد يكون .. وقد يكون .. ولكنها تشترك كلها في شيء واحد : في إعداد «المواطن الصالح» .

أما الإسلام فلا يحصر نفسه في تلك الحدود الضيقة ، ولا يسعى لإعداد «المواطن» الصالح ، وإنما يسعى لتحقيق هدف أكبر وأشمل ، هو إعداد «الإنسان» الصالح .

الإنسان على إطلاقه ، بمعناه الإنساني الشامل . الإنسان بجوهره الكامن في أعماقه . الإنسان من حيث هو إنسان ، لا من حيث هو «مواطن» في هذه البقعة من الأرض أو في ذلك المكان .

وذلك معنى أشمل ولا شك من كل مفهوم للتربية عند غير المسلمين .

* * *

منذ الخطوة الأولى ، في العهد المكي ، والمسلمون قلة قليلة تعد بالأفراد .. قلة مطرودة من كل حمى إلا حمى الله ، محرومة من كل قوة وكل سلطان .. يقرر القرآن عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها ، فيقول في سورة مكية من أوائل السور : سورة التكوير : «إن هو إلا ذكر للعالمين» .

«للعالمين» منذ أول خطوة . لا للعرب ، ولا لأهل مكة ، ولا لقريش . للعالمين كلهم في كل بقاع الأرض ، لا فرق بين أعجمي وعربي في ميزان الله

إلا بالتقوى والهدى : «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم [1] » .

دعوة لا تعرف حدود الوطن ولا العنصر ولا القبيلة ولا الأسرة . لا تعرف حاجزاً واحداً من الحواجز المصطنعة التي يقيمها الناس لأنفسهم في الأرض ، ويتصارعون من داخلها على الغلبة والسلطان .

دعوة لا تقسم الناس طوائف ، ولا تقسمهم ألواناً ولا عناصر . وإنما تنفذ إلى قلوبهم مباشرة ، حيث يكمن «الإنسان» . الجوهر الفذ الذي تتكون منه الإنسانية .

* * *

وهو في عمله لإعداد «الإنسان الصالح» لا يترك الناس حيارى يخبطون في التيه ، كل منهم يرسم الصورة على هواه ، وإنما يحدد لهم «مواصفات» هذا الإنسان في دقة ووضوح ، ويرسم لهم المنهج الذي يصلون به إلى تحقيق تلك الغاية .

فهذا الإنسان هو الإنسان «الأتقى» : «إن أكرمكم عند الله أتقاكم [2] » .

وهو الإنسان الذي يعبد الله ويهتدي إليه : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» [3] . ولكن العبادة ليست مقصورة على المناسك التعبدية المحدودة ، وإنما هي معنى شامل جداً وواسع جداً ، يشمل دقائق الحياة وتفصيلاتها ، ويشمل كل عمل وكل فكرة وكل شعور : هو التوجه بكل نشاط حيوي إلى الله ، ومراعاة ما يرضي الله في هذا النشاط وما يغضبه ، وتوقي غضبه والعمل على رضاه .

وهو الإنسان الذي يتبع هدى الله : «فإما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون [4] » ، فهو يستمد من هذا الهدى منهج حياته ومنهج شعوره ومنهج سلوكه ، ولا يتلقى من مصدر سواه .

وهو بالجملة الإنسان الذي يفي بشرط الخلافة في الأرض : «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة [5] » . «ولقد كرمنا بني آدم

---

(١) سورة الحجرات (١٣) .
(٢) سورة الحجرات (١٣) .
(٣) سورة الذاريات (٥٦) .
(٤) سورة البقرة (٣٨) .
(٥) سورة البقرة (٣٠) .

وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلا [1] » . فشرط الاستخلاف هو العمل بمقتضى هذا التكريم الإلهي ، فلا يهبط الإنسان عن مستوى « الإنسانية » ولا يتنازل عن الأفضلية التي فضله بها خالقه على كثير ممن خلق . فينشط في عمارة الأرض بما يوحيه حمله « في البر والبحر » ورزقه « من الطيبات » فيستغل هذه الطاقات الممنوحة له في كل اتجاه ، ولكن على المستوى الكريم الرفيع ، في حدود التقوى والاستمداد من منهج الله .

* * *

ولكي يصل إلى هذا الهدف المحدد الواضح السمات ، الذي نفصله في الفصول التالية من الكتاب ، فهو يرد الناس إلى خالقهم ويصلهم به مباشرة وبلا حواجز : « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك [2] » . « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه [3] » . « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد [4] » .

وهذا الرد إلى الخالق هو محور العقيدة الإسلامية كلها ، ومحور منهجها التربوي كله ، ومنه تتفرع كل التشريعات والتنظيمات والتوجيهات ، ومنه تسير الحياة البشرية على نهجها القويم .

يرتد الناس إلى خالقهم ، فيعلمون أنه وحده صاحب القوة والحول ، وصاحب الجبروت والسلطان . هو المالك لكل ما في الأرض وكل من في الأرض « بيده ملكوت كل شيء [5] » فلا يتطلعون لأحد غيره ، ولا يتعبدون لأحد سواه . ومن ثم تتحرر قلوبهم وأرواحهم ، وينطلقون خفافاً إلى الله .

ويرتدون إلى خالقهم فيهتدون بهديه ويسيرون على منهجه ، ولا يسيرون على نهج أحد آخر ولا قوة أخرى من قوى الأرض ، لأنها كلها ضعيفة هزيلة . كلها ضائعة مضيعة . كلها زائلة فانية . والقوة الحقيقية هي قوة الله ، والسلطان

---

(١) سورة الإسراء (٧٠) .
(٢) سورة الانفطار (٦ – ٨) .
(٣) سورة الانشقاق (٦) .
(٤) سورة ق (١٦) .
(٥) سورة يس (٨٣) .

الحقيقي سلطانه ، والمنهج الصحيح منهجه . ومن ثم تصلح نفوسهم وتصلح حياتهم على الأرض .

ويرتدون إلى خالقهم فيحسون بقوتهم إزاء كل قوى الأرض .. قوتهم التي يستمدونها من قوة الله ، فإذا هم قوة فاعلة موجّهة مريدة . قوة تبني وتنشئ وتعمر ، وتستغل ما سخر لها من قوى الأرض : «وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه» [1] ، فلا يقعدها العجز ، ولا تضعف بها الوسيلة ، وإنما تظل تحاول حتى تصل ، مستمدة عزيمتها من الله .

ويرتدون إلى خالقهم فيحسون أن منه المنشأ وإليه المصير . كلهم نشأوا من قدرته القادرة ، وكلهم صائر إليه : «فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر ، يوم تبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر» [2] «إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير» [3] «إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون» [4] ومن ثم يتطلعون إليه وحده في كل أمر ، ولا يلجأون إلى أحد سواه .

ويرتدون إلى خالقهم فيحسون المشاركة في الإنسانية ، فهم جميعاً قد صدروا عن إرادة الله ، ثم هم جميعاً خلقوا من نفس واحدة : يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء [5] » ومن ثم تصلح نفوس بعضهم تجاه بعض ، وتقوم بينهم أواصر الإنسانية والتعاون والمحبة ، ولا يقوم بينهم النزاع والشقاق .

* * *

ذلك باختصار هو الأساس الذي يقوم عليه منهج التربية الإسلامية ، وتلك خطوطها العريضة التي سيجيء تفصيلها في الكتاب ، وهي كلها مستمدة من حقيقة واحدة : حقيقة الخالق الذي ترجع إليه جميع الأمور .

وسوف يتبين لنا في البحث التفصيلي مدى تفرد الإسلام في الأهداف والوسائل ، ولكنه منذ اللحظة الأولى واضح التفرد ، فكل النظم الأخرى

---

(١) سورة الجاثية (١٣) .
(٢) سورة الطارق (٥ – ١٠) .
(٣) سورة ق (٤٣) .
(٤) سورة مريم (٤٠) .
(٥) سورة النساء (١) .

غير الإسلام أحد فريقين : فريق يصل الناس بخالقهم ، ليتركوا الأرض ، ومتاع الأرض ، وكفاح الأرض . وفريق يصل الناس بالأرض فيستمتعون بها ، ويكافحون من أجلها ، ويعمّرون فيها .. ويتركون الله .. والإسلام وحده هو الذي يصل الإنسان بالله ليُصلح حاله على الأرض وينظم حياته ، فيسير بجسمه على الأرض ، وهو متجه بروحه إلى السماء .

خصائص المنهج الإسلامي

طريقة الإسلام في التربية هي معالجة الكائن البشري كله معالجة شاملة لا تترك منه شيئاً ولا تغفل عن شيء . جسمه وعقله وروحه ، حياته المادية والمعنوية وكل نشاطه على الأرض .

إنه يأخذ الكائن البشري كله ، ويأخذه على ما هو عليه ، بفطرته التي خلقه الله عليها ، لا يغفل شيئاً من هذه الفطرة ، ولا يفرض عليها شيئاً ليس في تركيبها الأصيل .

ويتناول هذه الفطرة في دقة بالغة فيعالج كل وتر منها ، وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر ، فيضبطها بضبطها الصحيح .

وفي الوقت ذاته يعالج الأوتار مجتمعة . لا يعالج كلاً منها على حدة فتصبح النغمات نشازاً لا تناسق فيها . ولا يعالج بعضها ويهمل البعض الآخر ، فتصبح النغمة ناقصة غير معبرة عن اللحن الجميل المتكامل ، الذي يصل في جماله الأخاذ إلى درجة الإبداع .

* * *

وحين يستعرض الإنسان وسائل الإسلام في التربية ، يعجب للدقة العجيبة التي يتناول بها الكائن البشري . الدقة التي تتناول كل جزئية على حدة كأنها متفرغة لها ، ليس في حسابها سواها ، ثم الشمول ، على هذا المستوى من الدقة .. الشمول الذي يتناول الجزئيات جميعاً ، وفي وقت واحد .

إنها دقة معجزة لا تصدر إلا عن الخالق المدبر العظيم .

« فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم » [1] .

---

(١) سورة الروم (٣٠) .

والإسلام دين الفطرة ... فما من نظام يعالج الفطرة كما يعالجها الإسلام ، أو يستخلص من هذه الفطرة بعد تهذيبها وضبط إيقاعاتها ما يستخلصه الإسلام .

إنه لا يعطي كل جانب من الإنسان غذاءه فحسب ، بل يعطيه إياه كذلك بالقدر المضبوط الذي لا يجيعه ولا يتخمه ، ومن ثم ينطلق الإنسان وقد أخذ حظه من الغذاء الصالح ، بمقاديره الصالحة ، نشيطاً منتجاً متحركاً على الدوام .

وما من نظام آخر يعالج النفس البشرية بهذه الدقة وذلك الشمول .

هناك نظم آمنت بجانب واحد من الكيان البشري فراحت تعمل على تغذيته بما تراه صالحاً له .

نظم آمنت بالجانب المحسوس من الإنسان والحياة .. كل ما تدركه الحواس فهو حقيقة . وما لا تدركه فهو غير موجود ، أو ساقط من الحساب . ومن ثم راحت هذه النظم تهتم بكل محسوس على الأرض : الزراعة والصناعة والبناء والتشييد والإنتاج المادي على أوسع نطاق . وتهتم بكل محسوس في الكيان البشري ، فحاولت أن تيسر له مأكله وملبسه ومسكنه ، ويسرت له قضاء الشهوات .

ثم أغفلت من كيانه جانب الروح .

أهملت كل ما لا تدركه الحواس . أهملت الله والعقيدة ، وما يشع من العقيدة من مثل وأخلاق .

وكانت النتيجة أن استمتع الناس بحياتهم الأرضية أعظم متاع ، واستفادوا بالتنظيمات من كل نوع : التنظيمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمادية .. ثم .. انهار المتاع كله نتيجة خواء الروح من الإيمان وخواء الحياة من العقيدة . وانقلب المتاع السهل الحلو إلى تكالب على شهوات الأرض يقض المضجع ويكدر الحياة ، ويجعلها سباقاً دائماً لا ينقطع ولا يترك فرصة للراحة : راحة الجسد أو النفس أو الضمير . تزايد الصراع فما عاد صراعاً في باطن النفس ، ولا صراع فرد مع أفراد ، أو صراع جماعة مع جماعة .. وإنما أصبح صراع نفوس وأفراد وجماعات ودول وجيوش وطائرات وصواريخ .. ودمار رهيب يهدد وجه الأرض .

ونظم آمنت بالجانب الروحي من الإنسان .

آمنت بأن هذا الجانب هو الجوهر الحق . وكل ما عداه خداع لا يثبت على حقيقة . زبد يذهب جفاء .

وراحت تغذي الروح بما ترى أنه غذاؤها الحق .

راحت تتعبد وتتنسك ، وترفع الإنسان على ضرورات جسده كلها ، وتقهر هذا الجسد لأنه دنس لا تنبغي إطاعته ، ورجس لا ينبغي له أن يكون .

واستمتع الناس بحياة الروح . سبحوا في ملكوتها الطليق من أوهاق الضرورة ، النظيف من أدران الشهوات . وحلقوا في آفاق عليا من الأفكار والمشاعر جميلة كالأحلام .. ثم .. تمرد الجسد المكبوت على خلق الفطرة ، وكفر الناس بمتاع الروح .. أو أصابتهم السلبية الخاملة التي لا تنتج شيئاً في واقع الأرض ، لا تنشئ ولا تعمر ، ولا تهدم ولا تبني . ولا تغير الباطل ولا تقيم الصحيح من الأوضاع .

كلاهما انحراف عن السبيل .

كلاهما ينحرف بالإنسان عن الخلافة الحقة التي أرادها له خالقه يوم قال : «إني جاعل في الأرض خليفة» . الخلافة الراشدة العاملة بفطرة الله ومنهج الله .

والإسلام يجمع هذه وتلك ، ولا ينحرف كما تنحرف هذه وتلك .

الإسلام يؤمن من الكائن الإنساني بما تدركه الحواس ، وبما يقع خارج نطاق الحواس .

يؤمن بكيانه المادي المحسوس وأنه قبضة من طين الأرض : «إني خالق بشراً من طين [1]» .

يؤمن بما لهذا الكيان المحسوس من مطالب ، ويؤمن بما فيه من طاقات .

ويعترف بهذا الكيان اعترافاً كاملاً لا يغض شيئاً من قيمته ، ولا يهدر شيئاً من طاقاته .

يستجيب لحاجاته ومطالبه ، فيوفر له المأكل والملبس والمسكن والجنس ، ونصيبه من المتاع . ويجند طاقاته لتعمل في تعمير الأرض وإنشاء النظم وتشييد الحضارات .

وفي الوقت ذاته يؤمن بالكيان الروحي للإنسان ، يؤمن بأن فيه نفخة

---

(١) سورة ص (٧١) .